طب نفسى

..وحياتى هى ملكى !!

د. محمد شعلان

التحرير

حياتى هى ملكى يا حكيم ! من حق أن أقرر أن أبقيها أو أفنيها دون وصاية من أحد مهما كان علمه أو تخصصه . لقد أنشأ المجتمع مهنة الطب وحدد لها أهداف الإبقاء على الحياة قدر المستطاع . والإبقاء عليها بالحد الأدنى من الألم والمعاناة . وتضخمت المهنة . وتضخم اهتمامها بأهدافها حتى كادت تصير فوق القانون . وفوق حق الإنسان فى اختيار البقاء من عدمه . وفى اختيار الألم . وأصبحت فى موقع الوصى الذى يحدد للغير أن يحيا أو يموت . وأن يتألم أو يتلذذ .

لقد بدأت مشكلتى حينما طلبت من طبيبى أن يخرجنى من المستشفى بعد مكوثى به ستة شهور للعلاج من آثار حادث تصادم أدى إلى كسور فى عظامى . ثم شفائها . وغرق فى غيبوبة عميقة نتج عنه شلل تام لأطراف وجسمى . ما عدا النفس . مع بقاء وقيء وزائى بلا أضرار . وهذا الغرق شله حتى أية إصابة للجهاز العصبى لا يمكن علاجه أو انتظار أى تحسن فيه بعد مرور عدة شهور .

لقد دخلت المستشفى وأنا فى حالة غيبوبة وعظامى مهشمة فأعطانى الطبيب العلاج . دون أحد موافقتى بالطبع . وأعاد لى الوعى وسلامة الأطراف المكسورة . ولكنها صارت أطرافا بلا وظيفة . لا تتحرك ولا تحس لأن الأعصاب التى تغذيها انفصلت صلتها بالمخ بتمزق النخاع عند الفقرة الرابعة من عمودى الفقرى .

وما كانت مهنى . وموهبتى فى الأصل هى البحث فقد ثبتت ساعتها أنى إذا أفقد حركتى بالإعدام . فإذا أعمل بحياتى وأنا لا أملك اليد التى تستطيع أن تحول فكرى ووجدانى إلى عمل ينجسد فى تمثال جميل يعجب الآخرين ؟

عندما بدأ علاجى الفعلى . وطرحت هذه التساؤلات على الطبيب . لم يجد حيلة إلا أن يضع فى الأقراص المهدئة التى قام بعمل تحليل حينما أعاد لى وعيى بعد أن كنت فى غيبوبة . ولكن الآن وبعد أن امتلكت الوعى الذى يجعلنى أطرح هذه التساؤلات المريرة . فهو يريد أن يقيدنى عن وعيى بالمهدئات .

وعندما اعترضت ورفضت تناول الأقراص أصر وأدانى الأقراص فى الماء ووضعها فى البوبة ذات طرف حاد يخترق الجلد ويدخل العقار جسدى رغما عنى . أعطانى العلاج بالحقن .

لقد حاكمنى الطبيب القانون بأن أعطانى علاجا بلا موافقتى منى . فلجأت إلى القضاء . وبدأت الصراع معه . فكان دفاعه أنى مريض ولى حاجة إلى علاج . وأن هذا واجبه كطبيب . فهو لم يستشرنى حينما أفقدنى من الغيبوبة وفاقد عظامى على الالتئام . وبناء عليه فهو لم يستشرنى حينما قرر أن حالتى تستدعى التهدئة .

ولكنه تجاهل أنى حينما كنت فاقدا الوعى كان جسدى ينوب عنى فى الإعلان عن الرغبة فى الحياة . وبالتالى كانت هناك موافقة ضمنية على العلاج . أما الآن فهو يعالج وعيى فى ذات الوقت الذى أعلن فيه وعيى أنى لا أريد العلاج .

وزاد إصراره حينما قررنا من جوهر المشكلة . لقد طلبت الخروج من المستشفى رغم علمى أنى إذا لم أتلق الرعاية الطبية اللازمة فسوف يتراكم البول ويؤدى إلى تسمم دمى فأموت بعد أيام .

وطلبت الخروج لأنى فى حقيقة الأمر فروت ألا أستمر فى الحياة المقطعة التى أعيشها . لم يكن مجرد قرار بالانتحار ولكنه قرار بتقبل الموت الذى أصبح أمرا واقعا . إذ أنى اكتشفت أن حياتى كعقل بلا يد أو حياتى لا يترجم إلى واقع ليست حياة ولكنها موت مصحوب بالوعى به .

إنى أعى أنى مت وكل ما أحتاجه أن يترجم وعيى هذا إلى واقع بدلا من أن يستمر بشكل مصطنع فيطول عذابى بلا مبرر . وأستمر فى تخيل ما كان يجب أن يكون . وهو لا يكون . وأستمر فى أن أشبهى المرأة بينما أنا عاجز تماما عن لمسها . وقبلها .

وكان هذا جوهر التصادم بينا . إنى أقدر موقفه . لقد استمر مئة شهور يبذل الجهد لإعادة ما تيسر من الحياة إلى جسدى المهشم . ونجح فى حدود ما هو ممكن . كان ذلك الجسد الذى صنعه بمثابة العمل الفنى الذى حلمه والخيال الذى خلقه .

وبعد هذه المعاناة والجهد يواجه بأن هذا الخيال إرادة تتناطح مع إرادته . لقد اكتسب من مهنته هذا الحق الإلهى . فى أن يحيى ويميت . وينسى أن مريضه بشر من خلق الله هو الآخر . وله الحق فى اتخاذ قرار الحياة أو الموت . وإذا اعتبرنا أن الطبيب قد فوض لنفسه سلطة إلهية فمن واجب الريض . أو على الأقل من حقه أن يرده . أو على أسوأ الفروض يفوض لنفسه حقا مماثلا . لقد تعود من المرضى على الطاعة مقابل أن يتركوا مسئولية إحيائهم . وإماتتهم متخلين بالتالى عن مسئوليتهم فى هذا القرار .

وها أنذا أتحدى هذا الوضع . لا أريد أن أكون مريضا فاقد الوعى وفاقد الإرادة . لا أريد أن أحمله وحده مسئولية إحيائى وإماتتى . بل أن أشاركه فى القرار وأتحمل وحدى فى النهاية مسئولية ما يخصنى . وهو أمر حياتى ومرتى بعد أن استعدت وعيى .

ان الطبيب لم يعتد على هذا الموقف من مريض . ولذلك فقد أزعجه . ولم يجد مخرجا منه إلا أن يتهم حقيقته بأن يقول إن هذا مستحيل . والذى يفعل ذلك لابد أنه مجنون .

وعندئذ يجد الطبيب مخرجا من خلال الطب أيضا . فالقانون يعطيه الحق فى علاج المريض رغما عنه . إذا ما أثبت أن المريض مجنون . وما دمت أنا أتخذ قرارا يناقض ما يراه هو صوابا فلابد أنى مجنون . وله بالتالى مبرره أن يجبر على حق فى اتخاذ القرار .

وفعلا استدعى الطبيب زميلا له متخصصا فى الطب النفسى . وجاء هذا الشيخ ليثبت لى أنى مجنون . بينما كان على أن أثبت العكس .

وليست له العصا التى رفع فيها . إذا كنت أملك من الحجة والمنطق ما يبرر قرارى

بالموت فسوف يقول إبنى محمود . لأنى مصمم على الموت . وإذا لم أملك الحجة قال إبنى محمود لأنى لا أفكر بالمنطق وعاجز عن تقديم الحجة . لقد طلبت منه أن يسرع فى الكف عن استجوابى . لأن استمراره فى ذلك كان من الممكن أن يؤدى إلى جنون .

وأخيرا جاء القاضى وكان محامى قد استدعى طبيبا نفسيا آخر لا بث بحالة عمل الطبيبى المعالج . وقال إبنى مكتب فعلا وإن هذه استجابة طبيعية لمن هو فى مثل موقفى . وليس اكتئابى ناتجا من داخلى . ودون مبرر خارجى . أى ليس اكتئابا مرضيا من النوع الذهانى (الجنون) الذى يجعلنا نقول انه يفسر النزعة الانتحارية . ولما سأله الحق عما إذا كان يرى أن قرارى صواب أو خطأ قاطعه القاضى وصرح بين أن يتمتع عن الإجابة إذا أراد . ولكنه طلب أن يجيب باختصار . إنه لا يوافق على قرارى بالموت .

وخرج القاضى ليفكر فى الأمر . ليقول إنه رغم أن مهنة الطب من واجبها الإبقاء على الحياة . فإن صاحب القرار فى قبول العلاج من عدمه هو المريض . ومادام المريض يملك وعيه وقدرته على وزن الأمور فمن حقه أن يرفض العلاج . حتى لو أكد له الطبيب أن ذلك معناه موته .

ونظرا لأن المريض فى هذه الحالة يحفظ بوعيه وقدرته على وزن الأمور . ورغم أن طلبه يعنى أن يحكم على نفسه بالإعدام . فإن المحكمة ترى أن المريض محق فى طلبه . وعلى الطبيب أن يسمح له بالخروج . واختم القاضى حديثه بأن سألنى : ليست هذه الرحمة التى تطلبها . ها أنذا قاضى الإعدام الرحيم .

وحزن الطبيب . وحاول وطلب منى أن أقبل البقاء فى المستشفى مقابل احترامه لحق فى رفض العلاج . أى أن أموت فى المستشفى وتحميت لطلبه ولما سألنى . قال : ربما تغير رأيك . فأكدت له : ان ذلك لن يحدث .

وها أنذا يا حكيم أتحدث إليك . إذ ليست لك مصلحة فى الحجر علىّ . ولن تملك أن تضحى لأنى أحملت حريتى من المحكمة . ولكنى مع ذلك أشاركك مشاعرى بأنى أبادى وأنا فى هذه الحالة قبل أن يسيل على الموت . ولن يغفل أحد . والاختيار فعلا بيدى وأشعر بحجته . ترى هل مجرد التشاور معك دليل الشك فى أن قرارى ليس نهائيا وأن هناك احتمالا أن أغير رأيى فعلا كما قال الطبيب ؟

يجيب الحكيم . الحقيقة المفقودة فى تشخيص الطب لرغبتك أنه اعتبر نقطة بداية المرض هى الحادث الذى هشم عظامك وأصاب مخك . وأن علاجك هو فى إعادة رعيك والتحام عظامك . وتعويضك عما أصابك من فقدان وظيفى الحس والحركة فى أطرافك بالتدليك والتمريض وما شابه .

لقد تجاهل الطب أن هناك شخصا اشترك فى مسئولية وقوع الحادث وليست المسألة مجرد صدمة . لم يتساءل الطب عن الحادث . ولذلك لم يتطرق إلى احتمال أن يكون الحادث الذى وقع لك هو مظهر لرغبتك الدفينة فى الموت أى أن رغبتك فى الانتحار لم تكن وليدة الحادث أو استجابة لعجز الطب عن علاج الشلل الذى أصاب عاصمك الشوكى .

ولذلك اعتبر الطب أن انتحارك من عنده مجرد نقمة محددة بذلك الجزء الذى لم يستكمل من عملية الانتحار التى ظهرت فى الحادث نفسه . لقد حاولت أن تموت بالحادث ولم تكتمل العملية . وعدت إلى وعيك ومعه قررت أن تكمل موتى ما بدأته ربما بلا وعى ، ولذلك حتى حادثا . فأنت هادئا لم تكن واعيا برغبتك فى التصادم بسيارتك !)

ولأن الطب لم يستمع إلى معاناتك الأصلية التى جعلتك ترتكب الحادث . فإنك أردت حربا ووحدة . وطلبت الحديث مع المجتمع ومع القضاء . وهنا مرة أخرى لم يتطرق القضاء إلى معاناتك – فهذا ليست وظيفته على أية حال – ولكنه أعطاك حق اتخاذ القرار فى حدود وعيك وإرادتك .

لقد كان القاضى حريصا وهو يخلق لك مطالبك فى الخضوع للموت . وأبدى الطبيب موقفه فى مناقشات أن لديه جواز حق البقاء . لكى يأتى لتحدثك إذا طلبت . كلاهما كان يعلم أن هناك خطأ ما فى قرارك . وأنت أيضا تعلم . ولذلك جئت تستشيرنى . لو كنت تريد الموت حقا لما تشاورت معى أصلا .

ومع ذلك فلن أقول لك يجب أن تعيش حكم القانون . ولا تحكم النهاية المبكرة على الحياة . ولكن فقط سوف أقول لك إنك أردت الموت بارتكابك الحادث . ولكنك أردت الحياة بمجالك منه . فيما كان الطب فعالا . فإذا لم تكن لدى كل مريض رغبة مخبأة ودفينة فى الحياة ما عاش . وأنت أردت الموت حينما طالبت بحقك فى الامتناع عن العلاج . ولكنك طلبت الحياة حينما عبرت عن ترددك لتوك . ولعل ما كان ظاهرا ومعلنا هو رغبتك فى الموت . ولكن ذلك كان لأن الموقف المكلل له هو وجود من يعلن نيابة عنك عن ضرورة البقاء . أى الطبيب المعالج الذى يقول لك بفعله وقوله : يجب أن تعيش .

ومادام هناك من يقول لك حياتك فيمكنك بالتالى أن تعلن الجانب الآخر وهو رغبتك فى الموت . أى أنك تستطيع أن تقول : أريد أن أموت . مادام هناك من يقول : لن أتركك تموت . ولكن الآن وقد حكم القضاء ألا يجبر عليك أحد فأنت تواجه الاختيار كاملا : اختيار الحياة أو الموت على السواء . وليس عليك إلا أن توازن بينهما . واختار ما تفضله .

ولعل ما يعاونك على اتخاذ القرار السليم هو الوعى بأن قراراتك السابقة هى مسئوليتك أيضا . أنت مسئول عن الحادث وعن النجاة منه . حينما ارتكبت الحادث كان هناك اختلال فى وظائفك المنطقية . لم تعمل الحسابات الكافية لتجنب وقوع الحادث . ربما كنت مسرعا أو غير منتبه لانشغالك بأمور أخرى غير القيادة . أو ربما كنت تتمنى الموت . وربما كانت ترفض التفكير المنطقى والوعى المحدود الذى يجعل المرء يركز انتباهه فى حيز ضيق حتى يستطيع التحكم فيه . وربما كنت ترفض العمل والنظام والدقة . وبسبب رفضك احتلت القيادة وقوع الحادث .

اعترف لك يا حكيم أن القصة التى حكيتها لك من صنع الخيال . فهى قصة مسرحية (حياة من هى أصلا ؟) التى ألفها برايان كلارك . وقام بالدور الرئيسى فيها الممثل المسرحى الشهير مايكل مورباراتى . لقد قرأت الكتاب وشاهدت المسرحية وعايشت أحداثها وكل ما كنت أريده منك هو موقفك من القضية وأنا لست صاحب مشكلة .

أجاب الحكيم : لقد سبق أن حاول أحد مرضى فرويد أن يخلق له أحلاما ليتجنب الحديث عن نفسه . ولكنه مع ذلك من خلال عملية الاختلاق . عاد إلى الشاطئ الطبيعى حول تلك الأحلام عبر عن عقله الباطن بكل وضوح . التعبير الذى تحدد من خلال تلك المسرحية لا شك يعبر عما بداخلك .

ثم كان أن مهدنا وأراد أن يدخلنى الخامسة لأحبر ملفه ولأصدر السلم الاجتماعى . واصلا دورا منتجا فى المجتمع وأكسب مالا . ولكنى وربما بفضل تكنه هو . اكتشفت القيم الخالية للأشياء وليس فقط قيمها المادية الاقتصادية واحترت الثمن . . وجاء الوقت الذى كان لابد للثمن أن يتحول بدوره إلى عمل منتج أستطيع من خلاله أن أكسب وأعيش .

وحتى ذلك الوقت كنت أمارس الفرار فى عزلة عن الحياة . عن التكسب وعن الواقع وعن الفعل . وكان فى خيالا بلا عضلات بلا أيد وبلا أرجل . ولحت ضغط الحياة واجهت احتمال أن أصاب بالشلل العضوى . امارس الخيال . ولا أستطيع أن أعبر عنه بالفعل . وقد ينتج عن ذلك الجوع ثم الموت المادى وليس العضوى فقط . لقد توحدت مع بطل المسرحية الذى عزله فقد عن واقعه . وصار فعلا وأنا بلا أيد وبلا أرجل . إنه سبيلا الاكتشاف يقول إن الفن بلا فعل يعنى الموت

لقد تفاعلت مع المسرحية لأنى مريض من هذه الحقيقة . ولكنى لا أريد للفن أن يموت . ولا أصدق أن الطبيب أو القاضى أو المجتمع يريدون ذلك أو يعجزون عن المحافظة على بقائه .

واختم الحكيم كلامه . إنك تمثل ذلك الجيل الشاب الذى ثار فى الستينات باحثا عن القيم الإنسانية والجمالية . ورافضا عادية الجيل السابق . إلا أن المثل العليا والقيم الجمالية والإنسانية إذا ما انفصلت عن الواقع مثلها مثل انفصال رأس المريض عن جذعه ورجليه مأتى الموت .

لقد وافق المجتمع على حق الشاب فى الانتحار . ولكنه لم يسأل ما الذى دفعه للانتحار أصلا . وأين مسئولية المجتمع ؟ إنه يتطلع إلى . أن المجتمع بقاس مدى تحضره بقدرته على رعاية ضحاياه ومسئوليه ومعوقيه بغض النظر عن كونهم منتجين من عدمه أن يرعى شابه حتى لو لم يكن فيهم من ذلك النوع السطحى الذى يعمر الموى فى يوم ثم يموت . أن يرعى معاقيه . وأصحاب الآراء الخائفة والشاذة . ويوفر لهم مناخ التعبير وأن يحترم أصحاب الـ ٥١ ٪ ويتفهم ويحاورهم .

هذا ينطبق على الفرد فى علاقته بالمعارضة بداخله . وبالفن المبدع والنزعة الخلاقة فيه . وينطبق على المجتمع وعلى الإنسانية ككل . ونحن – شعوب العالم الثالث – ذلك المريض المشلول الذى يرفض العلاج وأنتم عاجزون عن إنقاذنا . فى ذات الوقت الذى تجبرنكم إيانا على الموت هكذا . ألا تفكرون فى تقديم هذه المسرحية فى مصر على مسرح أبو الموت ؟

يا حبذا لو جاءنا دعوة من مسئول . فنحن مثلا فى حاجة إلى المشاركة وتبادل الرأى . لابد أن نتكاتف جميعا لنعيش ونتطور . ويجب أن نحترس من التقدم المادى الذى انفصل انفصالا عن الروح والخيال . وأنتم تحلمون بالتقدم المادى وترفضونه فى ذات الوقت . ونحن نستمع به ولكننا مستعدة لهذا بعد الإجابة معا .